عائشة والسياسة

سعيد الأفغاني

Ka
Tas 1 6 13

دار الفكر

رأي في الكتاب قبل ٢٥ سنة

« الاستاذ سعيد الأفغاني من أفاضل دمشق المنقطعين للعلم بحثاً وتأليفاً وتدريساً ، وقد عرفه القراء قبل الآن بمؤلفاته :

« اسواق العرب في الجاهلية والاسلام » و « ابن حزم الاندلسي » و « الاسلام والمرأة » ، وبكتب أخرى لبعض العلماء المتقدمين عني بتحقيقها وتصحيحها ونشرها : منها جزءآن من « سير النبلاء للذهبي » عن السيدة عائشة وابن حزم ، ورسالة لابن حزم « في المفاضلة بين الصحابة » ، ورسالة للزركشي عنوانها : « الاجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة » .

وقد نشر أخيراً أثناء مقامه بيننا في مصر كتاباً نفيساً من تأليفه بعنوان « عائشة والسياسة » قال في مقدمته :

« .. اقدمت على نشر هذا الكتاب وأنا أدري ما في موضوعه من حرج ، ومن راعى جانب الناس وحاذر أن يصدم ما نشؤوا عليه من اهواء قضى ولم يقل من الحق شيئاً . وبحثنا هذا شائك جد شائك ، وقد استعنت الله وسلكته على حرجه ، وأحب أن يعلم القارىء أني شرعت فيه قبل عشر سنين كوامل وانا - كغيري - أحمل آراء في بعض الحوادث ، وأحكاماً على بعض الاشخاص ، فما زلت أوغل في بحثي وأتحرى الصغيرة والكبيرة ، حتى غيرت - على رغم هواي ومألفي - كثيراً من تلك الآراء وهذه الاحكام ، وتحررت بعد التفكير الهادىء من كثير من الآراء والمذاهب التاريخية التي يتعبد بها بعض الباحثين لعصرنا ، يقهرون المنطق والواقع على الخضوع لها ، فإن لم يخضعا كان الخطأ في المنطق والوقع لا في المذهب . فلست اذاً متبعاً مذهباً ما ، وان أخضع الحوادث لتفسير ما فأكلف الاشياء غير طبائعها . »

وقد تصفحنا الكتاب فأعجبنا بأناة مؤلفه وبلاغته في القول ، وإخلاصه للحق ، وتوسعه في الرجوع الى المصادر حتى بلغت به ما أراد من إجادة وصحة حكم ....

وبالإجمال فإن كتاب « عائشة والسياسة » من أجود الكتب التي ألفت في زماننا .. »

محب الدين الخطيب

مجلة الفتح (العدد ٨٥٥ ص ٨) جمادى الأولى ١٣٦٧ هـ

Türkiye Diyanet Vakfı
Kutüphanesi
İslâm Ansiklopedisi

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على محمد وإخوانه الأنبياءِ والمرسلين ، والصحابة والتابعين ، وجميع الهداة إلى يوم الدين .

« رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » .

بين يدي الكتاب

في طبعي هيام بالحرية والصراحة ، وكثيراً ما أتنكب الطريق الأسلم في سبيل الجهر بما أرى أنه الحق في العقائد والأشخاص ، متحملاً بصبر وطمأنينة ما أجر على نفسي من عناء وعداء ؛ وهذا بلاء حتم لا مفر منه لمن خلق حراً صريحاً ، ولو حاول غير ذلك ما استطاع .

لقد أقدمت على نشر هذا الكتاب وأنا أدري ما في موضوعه من حرج ؛ ومن راعى جانب الناس وحاذر أن يصدم ما نشؤوا عليه من أهواء ، قضى ولم يقل من الحق شيئاً . وبحثنا هذا شائك جد شائك ، ما في ذلك ريب ؛ وقد استعنت الله وسلكته على حرجه ، بل لعلي لم أسلكه إلا لحرجه . وأحب أن يعلم القارىء أني شرعت فيه قبل عشر سنين كوامل ، وأنا كغيري من المشتغلين بالتاريخ والأدب — أحمل آراء في بعض الحوادث ، وأحكاماً على بعض الناس ؛ فما زلت أوغل في بحثي وأتحرى الصغيرة والكبيرة ، وأنظر في مبادىء الحوادث ثم في ذيولها البعيدة ...حتى غيّرت — على رغم هواي ومألفي — كثيراً من تلك الآراء وهذه الأحكام .

وأبعد من ذلك : فقد تحررت — بحمد الله — بعد التفكير الهادىء من كثير من الآراء والمذاهب التاريخية التي يتعبد بها بعض الباحثين لعصرنا ، أو يزْهُوْن

بالانتساب إليها وكثرة الترديد لمصطلحاتها الحديثة . يقهرون المنطق والواقع على الخضوع لها ؛ فإن لم يخضعا كان الخطأ في المنطق والواقع لا في المذهب .

وليس مذهب من هذه المذاهب بحق مطرد . أبداً، فقد يوافق بعضه الحق حيناً ثم يجانبه . ووجدت خير معين لفهم التاريخ فهماً صحيحاً هو البصر بالنفس الإنسانية فحسب ، فالإنسان ما زال كما كان ما تبدل جوهره في شيء ، سواء أعاش في (رومية) القرن الأول أم في (لندن) القرن العشرين ، وما يؤثر في نفس الرجل البادي يؤثر في نفس الحضري الراقي .

وعلى هذا فلست إذن متبعاً مذهباً ما ،ولن أُخضع الحوادث لتفسير ما فأكلف الأشياء غير طبائعها . فلا أقول بالعلية التاريخية المطردة، ولا أقر (الجبرية) في التاريخ ، وأجد أبعد المذاهب عن الواقع وأنآها عن الحق والفطرة : مذهب التفسير الماديّ للتاريخ ، وهو أحدث المذاهب حتى الآن ، ويكاد لا يكون مذهب في روسية وعند من انجرّ على أذيالها وأذيال دعاتها المبثوثين؛ وإنما أعتقد أن هذا الكائن الاجتماعي الذي هو الإنسان لم يتغير من حيث غرائزه ودوافعه وكوابحه وميوله وأهواؤه .. والنفس الإنسانية خالدة الصفات والميزات ، فمن فهمها فقد فهم تاريخ كل الأمم في كل العصور .

وأعتقد أيضاً أن هذا التاريخ (الذي موضوعه الإنسان من حيث هو كائن اجتماعي) لا قانون آليّ ينتظمه ولا أحكام مطردة يخضع لها : فلكل حادث أسباب عدة قريبة وبعيدة ، فيها المادي والمعنوي ، والظاهر والخفي ، وقد يبرز من بينها جميعا — في بعض الأحيان — سبب يعللون به الحادث ويجعلونه (السبب المباشر).

وعلى هذا فأبعد الناس عن فقه التاريخ وفهم النفس البشرية : أولئك الذين يقسرون الحوادث على التفسير المادي فقط ، كأن النفوس البشرية آلات صُمٌّ لا تعقيد في تركيبها ولا التواء ، ولا تتحرك ولا تتنفس إلا بوحي الأسعار وقوائم التجار وأسهم الشركات وأطنان البترول ومناجم الحديد .. فلا روحية ولا عواطف

ولا حساب ما لكرامة هذه النفس العجيبة ، فإن كان هذا تفكيراً فأنا أشهد أن الله لم يخلق فهماً أكثر (سطحية) وتعامياً منه .

هذا ما أحببت أن يعرفه عني قارىء كتابي أول شيء ؛ رأيت حقاً علي بيانه بوضوح لا خفاء به ولا لبس ، قياماً بالأمانة العلمية .وللقارىء أن يوافق أو يخالف ، وأنا — بعد — بشرٌ أخطىء وأصيب ، وما أنا بشيء أفرح مني بخطأ ينبهني إليه مخلص حصيف فأرجع عنه .

* * *

هذا الكتاب صور حية من صدر الإسلام ، فيه أعنف نشاط سياسي شهدته الجماعة الإسلامية، أجلوه كما شاهدته من خلال الحوادث على طبيعته، في إخلاص وأمانة وإفراغ وسع ، ومن غير تزويق .

وسينعم القارىء بلون آخر غير النشاط السياسي : هو هذا الأدب الغزير من نثر وشعر وأراجيز ، زخرت بها تلك الحوادث الجسام التي اكتوى بها العالم الإسلامي يومئذ ، فنفث المصدورون من أبطال القتال وفرسان البلاغة أدباً حياً خالداً ما خلدت النفس ، تقرؤه فتشارك قائليه شدائدهم وأهوالهم ، وتجد في نفسك الحسرة التي وجدوها ، وتعاني الآلام التي عانوا ، وتكاد كبدك تتفطر ألماً لما كابدوا ... وإذا أنت أيضاً تنفس عن صدرك بدموع حِرار تسكبها غزاراً وأنت مغلوب على أمرك . ولا عجب في ذلك فليس في هذا الأدب الكثير الذي يطالعك في ثنايا الحوادث مغرز إبرة لتكلف أو تزويق ، إنه فيض الروح ووحي الحسرة وعصارة النفس .

* * *

وأحب أن أنبه هنا إلى خطأ يوقع كثيراً من الباحثين في القصور ، ذلك أنهم يكتفون في بحوثهم في التاريخ العربي بالمصادر التاريخية فحسب ، فتجيء بحوثهم على ظلع ما تكاد تستقل واقفة . وكم من حقائق تاريخية خلت منها مصادر التاريخ

وزخرت بها كتب الأدب ودواوين الشعر ، ولا غنى لكل باحث في تاريخ العرب عن اطلاع مستفيض على المكتبة العربية ، وإن ما استفدته أنا من كتب اللغة والفقه والحديث والتفسير والأدب والأخبار ...لا يقل عما أصبته في مطولات التاريخ ، لا في هذا الكتاب وحده ، بل في جميع كتبي السابقة . وأعجب من ذلك أن كتابي (الإسلام والمرأة) وهو المدخل التاريخي لهذا الكتاب ولكل دراسة قيمة عن المرأة العربية ، قد غرف من مصدرين اثنين أساسيين هما القرآن والحديث ، أما المصادر التاريخية فقد كانت هناك مصادر ثانوية .

ولا بد من الإشارة إلى أني جعلت أكثر اعتمادي – بعد البحث في المصادر التاريخية – على تاريخ الطبري خاصة ، فهو أقرب المصادر من الواقع ، وصاحبه أكثر المؤرخين تحرياً وأمانة ، وعليه اعتمد كل من أتى بعده من الثقات ، وليس (الكامل) لابن الأثير إلا تاريخ الطبري منسقاً مختصراً منه الأسانيد واختلاف الروايات ، وحسبك أن ابن خلدون فيلسوف المؤرخين نقل عنه حوادث الجمل ثم أدلى بهذه الشهادة القيمة :

«هذا أمر الجمل ملخصاً من كتاب أبي جعفر الطبري ، اعتمدناه للوثوق به ولسلامته من الأهواء الموجودة في كتب ابن قتيبة وغيره من المؤرخين(١)».

الحق أني – منذ نعومة أظفاري – أولعت بهذا المؤرخ الجليل ، وحرصت هنا كل الحرص على عبارته ما وجدت إلى ذلك سبيلاً ، لما تقدم ، ولشيء آخر هو أن نثر الطبري من النثر الراقي البليغ الذي لا تطيب النفس بالتفريط فيه ، يقرؤه المتعلم مشروح الصدر ناعماً بما فيه من متعة لا توصف ، وهو إذ ينقل لك الرواية ينقلها بأمانة وتحرج ، مسندة إلى رواتها ، وبذلك يكون قد برىء من عهدتها وتركك إلى فهمك وحصافتك تأخذ ما تأخذ وتدع ما تدع ، لا يضمن لك في عمله إلا أمانة النقل والبرء من العهدة ، ثم أنت ومواهبك .

* * *

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/٤٢٥ (مطبعة النهضة سنة ١٣٥٥ هـ) .

قد يقرأ هذا الكتاب قراء من طوائف شتى وميول مختلفة ، وكل الذي أرجو : أن يقرؤوه بنفوس طيبة سمحة زايلها التعصب . فالتعصب عدو العلم عدو الحق عدو الخير عدو الحرية .. عدو لكل الهبات العلوية التي أكرم الله بها الناس . وليعتقد المرء ما شاء في هذه الحوادث وأبطالها فليس عليه في عقيدته من بأس ، ولكن البأس كل البأس في أن يوقن أن ما يعتقده هو الحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن كان كذلك فقد جعل بينه وبين الحق والعلم حجاباً صفيقاً وأغلق دونهما الأبواب ، ثم رمى عليها بالأقفال .

والخير أن يجعل المرء عقيدته في هذه المسائل – بعد بذل الجهد بإخلاص – مذهباً شخصياً يحتمل الخطأ ، ثم لا يأخذ نفسه إلا بشيئين : الإخلاص في البحث وما يقضي به العقل الحر من حكم بعد بذل الجهد والتجرد من كل عصبية .

هذا وقد يضيق أقوام – كما ضاقوا من قبل – بتشددي في رفض بعض روايات مشهورة استفاضت على ألسنة الناس وأقلام الكتاب والمؤرخين ، تُزعم نسبتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى أحد أصحابه ، ذاهبين إلى أننا لا حق لنا في امتحان المتن بعد صحة السند . وأرى أن التشدد في هؤلاء الضائقين أنفسهم : إذ منذا الذي حظر ما حظروا ؟ وهل من الأمانة أن يغمض باحث عينيه عن وهن أظهره الله عليه في خبر ؟ ونحن نعلم وهم يعلمون أن أهل الأهواء لم يتورعوا عن نصرة أهوائهم بأحاديث ينسبونها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، أو يتسامحون في روايتها – من حيث يشعرون أو لا يشعرون – إرضاءً لهواهم السياسي أو المذهبي أو العصبي . والمحدثون أنفسهم لم ينقلوا عن ذي هوى – مهما كان جليل القدر – حديثاً ينصر هواه ، هم أنفسهم لم ينكروا نقد المتن ، بل هم الذين شرعوه وشرعوا له قواعد عامة ؛ إلا أن العناية انصرفت إلى نقد السند لأنه أقرب إلى (الآلية) حتى ضاع في عباب هذا النقد ما لهم من نقد للمتن ، وهم على كل حال – والشواهد حاضرة – لم يتنكروا للعقل إذا رفض رواية تضافرت الشُّبه على توهينها . ومن أكثر النظر في تواليفهم عرف ذلك من شأنهم ، غير أنهم لم يفتحوا الباب على